المراكز التجارية في الارض الاردنية وعلاقاتها مع جيرانها قبيل الاسلام

Dr Saleh Hamarneh
Dept of History – Faculty of Arts
University of Jordan
Amman
Jordan

بقلم
الدكتور صالح الحمارنه
قسم التاريخ ـ كلية الاداب
الجامعة الاردنية

ليس الغرض من هذا البحث وصف الطرق التجارية وانواع البضائع وما يتعلق بذلك بقدر ما هو الحديث عن القبائل التي مارست التجارة ومرت الطرق التجارية بديارها ومساكنها. فكثيرا ما اغفلت الدراسات الحديثة هذا الجانب. وتعول هذه الدراسة بالدرجة الاولى على المصادر الاولية لدى المؤرخين والجغرافيين العرب في الحضارة العربية الاسلامية.

وتبرز دور ثلاث من هذه القبائل هم: الانباط، جذام، وبني كلب.. ذلك اولا: لان دورهم كبير ومهم وثانيا يمكن اعتباره نموذجا كلاسيكيا لبقية القبائل التي سكنت هذه المناطق. فهذه القبائل قد ساهمت مساهمة فعالة في الحياة الاقتصادية والتجارية والسياسية والدينية في المجتمع العربي/وعلى الارض الاردنية اليوم/في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام.. واستمرت تلك الفعالية ولكن بلون جديد وروح جديدة بعد قيام الدولة العربية الاسلامية.

لست ارمي الى تكرار ما هو معروف عن تقسيمات البلاد الشامية في الفترة الرومانية ـ البيزنطية والتي سبقت العصر العربي الاسلامي فأمر ذلك معروف ومدروس، ولكني احب هنا ان انوه ان مدار دراستي هذه هو حول الجزء الجنوبي من الديار الشامية والتي كانت في الفترة البيزنطية تقسم الى ثلاث فلسطينيات وعربية واحدة، هذه الاجزاء نفسها تقريبا، قد اجريت عليها تعديلات كثيرة في الفترة العربية الاسلامية اذ ان الادارة الاسلامية قد قسمتها الى جندين او لنقل ولايتين.

ويهمنا على التحديد الجزء الذي عُرف بالمقاطعة العربية والتي يحددها باركر ببحثه فيقول "المقاطعة التي تتكون من عدد من الحصون والمرابض، وقلاع المراقبة والتي ترتبط ببعضها بشبكة من الطرق وتنحدر باتجاه الجنوب من عاصمة المقاطعة بصرى ـ (في جنوب سوريا اليوم) حتى العقبة (ايلة قديما) مع امتداد الارض الاردنية حتى ذراع البحر الاحمر بمسافة طولها (٣٦٠كم) اي (٢٢٥) ميل. ولم تكن الارض في شرقي الاردن اكثر كثافة في السكان من فترة المقاطعة حتى العصر الحاضر".(١)

(١) S.T. Parker, Archaeological Survey of the Limes Arabicus, Annual of the Dept. of Antiquities 1976 XX1, P. 19 Amman.

ان المدن الشامية والمصرية ظلت تحافظ على نشاطها الاقتصادي بعد نشوء القسطنطينية حتى الفتح العربي الاسلامي، فالمصادر التاريخية والجغرافية المتنوعة والمعاصرة لتلك المرحلة تؤكد استمرار الازدهار الاقتصادي والعلمي والثقافي في مدن مصر وسوريا بشكل خاص. فكثرة العملة البيزنطية المكتشفة على طريق الحرير المؤدية الى الهند والصين تؤكد بدورها على نشاط التجارة البيزنطية الخارجية منذ نشوء بيزنطة حتى ظهور الاسلام. ونلاحظ ان المدن الشامية كان لها دور بارز في الصناعة والتجارة العالمية، ولكن هذه التجارة تعرضت للتقلص والانكماش في اواخر القرن السادس والقرن السابع بسبب الصراع البيزنطي الفارسي. فتناقصت بسبب ذلك مدن الحدود والحصون من (٣٠) في القرن الرابع الى أقل من عشرة في القرن السابع، وهذا بالطبع أضعف خط الدفاع ومكّن من ظهور نفوذ الزعماء المحليين بشكل اقوى مثل زعامة الغساسنة وجذام وما أن تم الفتح الاسلامي بعد ذلك وقامت الدولة العربية الاسلامية في المدينة ثم في دمشق حتى عادت التجارة العالمية من جديد الى النشاط وبشكل واسع وكبير.

هذه الحقائق الواضحة سقناها لربط الاحداث التي نحن بصددها والتي وقعت بالفترة قبيل الاسلام من حيث الزمن وبجنوبي البلاد الشامية وشمالي الحجاز من حيث المكان. فالاجزاء الجنوبية من البلاد الشامية وفي ظل الدولة البيزنطية كانت لها زعامتها القبلية المحلية ـ يتبع التفصيل ـ حيث كان هؤلاء الزعماء يتمتعون بحرية ربما اكبر من حرية المدن، ففي البتراء ومنطقة عمان ومعان ودومة الجندل وايلة كانت القبائل تدبر امورها بنفسها. وثمة أمر بارز في صفة البلاد الشامية ـ ممتد منذ القدم ـ فقد قامت بها على الدوام مدن ذات كيانات مستقلة (المدن ـ الدولة) وظلت الشام بلدا فيه دول كثيرة مستقلة ـ بالغالب الاعم من تاريخها ـ ولا ترضى بالوحدة، فاما تعاونها معا أو اقتتالها فيما بينها، فطبيعتها الجغرافية كان من الاسباب، وثمة أمر تابع لذلك، فالبلاد الشامية بحكم موقعها وتضاريسها ومناخها من جهة وكثرة القادمين (بغض النظر عن الدوافع) اليها على مر العصور كانت دوما بلد التناقضات. فقد كان ثمة تحاسد

بين سكان الارض القاحلة والارض المزروعة.. وكان ثمة تناقض بين وجهات النظر في المدن وفي الريف ـ والبادية، وثمة اختلاف بين الساحل والداخل، فمدن الساحل وقراه منفتحة على البحر، وسكانها تتسع آفاقهم فتكثر خبرتهم وتزداد تجربتهم، أما سكان الداخل فآفاقهم اضيق وفيهم المحافظة بسبب قبوعهم في مدنهم وقراهم.(٢)

بعد سقوط البتراء ١٠٦م شيدت الادارة الرومانية في حوران شبكة من الطرق وقد اهتم اباطرة روما منذ ذلك التاريخ اهتماما كبيرا بتنمية الحياة المدنية في الشرق الادنى وتشجيع مشاريع الاعمار وشق وتعبيد الطرق الآمنة وكان اعظمها طريق تراجانوس الجديدة بين بصرى الشام والعقبة مارة بعدة مدن أهمها أم الجمال وجرش والكرك والطفيلة والبتراء.(٣) وكذلك اصلح تراجانوس القناة القديمة التي تصل النيل بالبحر الاحمر واحكم بذلك احتكار الرومان للتجارة وثمة حصون أخرى أقيمت في فترات لاحقة لتراجانوس مثل الحصن في اللجون وفي أذرح الى المشرق من بتراء التي اقامها ديوقليتان في القرن الرابع الميلادي. فمن الدراسات السابقة نرى ان الاجزاء الجنوبية للبلاد الشامية تجتازها ثلاثة طرق من الشمال الى الجنوب وهذه الطرق هي:ـ طريق دمشق ـ إيلة، طريق اللجون ـ البتراء، طريق قيسارية، هذه هي الطرق في الاراضي الشامية ولها امتداد في البلدان المجاورة الخارجية مثل اليمن، والحيرة.(٤) واما الطريق الى الشمال من مكة فيتكون من مرحلتين اساسيتين:ـ الاولى: حجازية: تنتهي عند يثرب، التي تأتي بعد مكة من حيث الاهمية الاقتصادية في الحجاز. الثانية: فتمتد من يثرب الى بصرى ـ وفيها ايضا محطات تختلف في المسافات الفاصلة فيما بينها وهذه هي الطريق الهامة بالنسبة لبحثنا هذا.

وهناك طريق ثالث يصل مكة بالخليج العربي ويقطع اليمامة ويصل الى موانيء الخليج والبحرين وغيرها. قلنا ان الطريق الثانية هي الهامة بالنسبة لبحثنا ومن أهم مراكزها "دومة الجندل"، التي كانت تعتبر عقدة مواصلات المنطقة الشرقية حيث فيها تتلقى بضائع الهند والبلاد الشرقية.

وكان يقوم بدومة الجندل سوق موسمية تعرض فيها منتوجات البلدان المختلفة المحلية والاجنبية ومن السلع المحلية المشهورة في سوق دومة الجندل: اللبان والمر والعقيق من اليمن. والعطور والذهب والعاج وخشب الابنوس والرقيق من افريقية الشرقية والقمح في بعض الاحيان من مصر.(٥)

وكما كانت دومة الجندل تعتبر عقدة المواصلات فان المنطقة وما حولها كانت تشتهر كذلك بالمراعي الخصبة وتسمى الان بمنطقة الجوف ومن أبرز سكانها قبيل الاسلام وفي صدر الاسلام قبائل بني كلب التي قاومت المسلمين في معركة مؤتة، ولكن بعد ذلك بقليل اصبحت من اكبر مناصري الدولة العربية الاسلامية خاصة بني امية في الشام. وكانت مساكن بني كلب بجانب دومة الجندل في السماوة كلها وحول حمص وتدمر وفي المزة والجولان والغوطة من اعمال دمشق فهي من اكبر القبائل العربية التي سكنت الارض الاردنية في صدر الاسلام وما تزال بطونهم تسكن الاردن وفلسطين حتى اليوم. مثل الرولة، والشرارات، والرفيدات.(٦)

وفي المصادر العربية وصف طريق لسوق دومة الجندل الذي كان يعقد حولياً في شهر ربيع الاول ويستمر في البيع والشراء والاخذ والعطاء مما يتصل بالناحية التجارية بل تعداها الى فكاك الاسرى ودفع الديات والاصلاح بين القبائل وغير ذلك من الامور العامة يقول ياقوت "تقع سوق دومة الجندل في منتصف الخط الواصل بين العقبة والبصرة تقريبا.. وفيها حصن "مارد" المشهور والى غربها عين تثج فتسقى ما به من النخيل والزرع." سميت دومة الجندل لان حصنها مبنى بالجندل وكان بهذا الحصن بنوكنانة من كلب.(٧)

وتتحدث المصادر كذلك عن ان قبيلة كلب، اصحاب هذه المنطقة كانت اكثر العرب قناً وابلهم من اسرع انواع الابل. وكانت نساء كلب يتعاطين التجارة، مثل بعض نساء العرب في مكة وغيرها وكثيرا ما كان رجال يقومون في تسيير امور تجارتهن. فكانوا يفتحون في هذه السوق حوانيت من شعر يجعلون فيها عبيدهم واماءهم وكانوا ـ على عادة بعض العرب في الجاهلية يكرهون فيها فتياتهم ـ اماءهم على البغاء ويأخذون لانفسهم كسب أولئك البغايا من امائهم ـ فلما كان الاسلام حرم الله هذه العادة.. "ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصناً." هذا وقد كانت المواخير موجودة في القرى والمدن وعلى طرق التجارة حيث يأوى التجار وأصحاب الاسفار للراحة. فيجدون أمامهم

(٢) نقولا زيادة ـ التطور الاداري لبلاد الشام بيزنطه والعرب ـ بحث قدم لمؤتمر بلاد الشام الرابع عام ١٩٨٣ ص ٢٠. ـ عمان

(٣) عدنان الحديدي ـ
المسارح الرومانية في الشرق الادنى ـ، مجلة دراسات المجلد ١ كانون الاول ١٩٨٤. العدد ١، ٢ ص ٣١ عمان.
صالح العلي ـ محاضرات في تاريخ العرب. ص ٤٢ بغداد.

(٤) اليعقوبي ـ البلدان (الطبعة الاوروبية) ص ٣١٧.
ابن خرداذبه=المسالك والممالك (الطبعة الاوروبية) ص ١٣٤ـ١٣٦.
م. كستر ـ الحيرة، ومكة ترجمة يحي الجبوري بغداد ١٩٧٦ ص ٤٠.

(٥) Nigel Groom, Frankincense and Myrrh, Longman, London 1981, p. 192.

(٦) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان، انظر "دومة الجندل"، دار المعارف الاسلامية ـ بيروت ١٩٧٩.
حمد الجاسر ـ في شمال غربي الجزيرة، دار اليمامة ـ الرياض ص ٤٤، وما بعدها ١٥١ وما بعدها.

(٧) ياقوت الحموي ـ معجم مادة دومة الجندل.

تلك المواخير، وتذكر المصادر ان بعض تلك البغايا يضرب عليهن القباب ولهن رايات.(٨)

وجاء في المحبر "وكان ملكها (دومة الجندل) بين اكيدر العبادي ثم السكوني وبين قنافة الكلبي. فكان العباديون اذا غلبوا وليها اكيدر. واذا غلب الغسانيون ولوها قنافة.. فأيما ملك.. لم يَبْع بها أحد شيئا الا بأذنه.. مع ما يتصل اليه من عشورها.. وكانت مبايعة العرب فيها بالقاء الحجارة.. وذلك انه ربما اجتمع على السلعة النفر يساومون بها صاحبها فأيهم رضى القى حجرة.." هذا وكثير من تجار مكة قد تعلم من اهل دومة الكتابة قبيل الاسلام. ومما يدل على نشاط بني كلب التجاري ما يذكره ابن عساكر في حديثه على لسان الصحابي سلمان الفارسي فيقول "فأقمت (بأرض عمورية) حتى مر بي رجال من تجار العرب من كلب فقلت لهم: تحملوني معكم حتى تقدموا بي أرض العرب.. قالوا نعم.. وحملوني حتى جاءوا بي وادي القرى.. فباعوني عبدا.." ويذكر ابن قتيبة ان كلب ابتاعت من الروم صهيبا (رضى) ثم قدمت به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان. وهذا يؤيد الرأي القائل ان فروعا من بني كلب قد وصلت فيما بعد الى خليج القسطنطينية.(٩)

وتذكر المصادر ان صلحا تجاريا تم ما بين الرسول واهل دومة الجندل في السنة الخامسة للهجرة.. اما فتحها فتم في السنة الثانية عشر للهجرة في خلافة ابي بكر الصديق. ويرد خطأ انه في دومة الجندل وقع التحكيم بين عمرو بن العاصي وأبي موسى الاشعري في خلافة علي بن ابي طالب حيث ان هذا التحكيم قد تم في موقع أذرح، ويبرز ياقوت ان سبب اختيار أذرح مكانا للتحكيم هو قربها من زعماء المدينة الذين دعاهم معاوية. ويصف ياقوت في معجمه بلدة أذرح فيقول: "أنها محلة رومانية بها نبع تفيض مياهه وتنساب في شقوق الارض ـ في اطراف الشام من أعمال الشراة، وقد وصلت القوافل القريشية الى هذا المكان الواقع في اقليم جذام ـ وكان بها يوم خضعت للرسول مائة اسرة على أقل تقدير وصولح أهل أذرح على مائة دينار جزية".(١٠)

ويذكر الافغاني ان اسواق العرب في الجاهلية تقسم الى ثلاثة اقسام:ـ

١) اسواق خاضعة لنفوذ خارجي تدار بنظم خاصة.
٢) أسواق أنشأها العرب أنفسهم... فصارت مع الزمن تمثلهم اصدق تمثيل في عاداتهم في البيع والشراء والخصام والدين والزواج والحقوق.. ولا يشرف عليها الاّ سراة أهلها. وابرز مثال سوق عكاظ الشهير.
٣) اسواق ذات صبغة مختلطة نظرا لموقعها الجغرافي: وهي تكون على ساحل البحر كعدن وصحار ودبي. وفي هذه يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس ويضئل فيها الطابع القومي. ومن طريف ما يذكره اليعقوبي عن حماية الاسواق "وكان في العرب قوم يستحلون المظالم اذا حضروا هذه الاسواق فسموا المحلون وكان فيهم من ينكر ذلك وينصّب نفسه لنصرة المظلوم فيسمون الذاده فاما المحلون وكانوا في قبائل أسد وطيء، واما الذاده فكانوا من شيبان ومن بنى كلب بن وبرة وغيرهم وكانوا هؤلاء يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس وكان العرب يضعون اسلحتهم في الاشهر الحرم.(١١)

الانباط والتجارة: قد يبدو لكثيرين ان دور الانباط في الفترة التي سبقت الاسلام مباشرة قد انتهى ولكن المتمعن يرى ان بعض الدور بقى لهم حتى بعد ظهور الاسلام. فالانباط بعد سقوط دولتهم على يد ترجانوس في مطلع القرن الثاني الميلادي لم يختفوا مع زوال سلطانهم السياسي الكبير عن خريطة الاحداث، فمن صفوفهم خرج عدد من المسيحيين الاوائل حتى انه في القرن الثالث ومطلع القرن الرابع للميلاد. اصبحت البتراء مركزا لأسقفية واشتركت في كثير من المجامع المسيحية كما ان كثيرا من كتابات الانباط ونقوشهم التي وجدت منتشرة في ارض سيناء ومصر وفي أم الجمال وفي موطنهم الاول البتراء ومدائن صالح لا تتعدى في تاريخها ـ حسب معرفتي ـ القرن الرابع ميلادي.(١٢) فاستمر الانباط بعد زوال سلطانهم السياسي بمزاولة أعمال التجارة والزراعة والرعي وتشير بوضوح لذلك المصادر العربية الاسلامية، فيذكر الواقدي ان الانباط التجار كانوا يترددون على سوق دومة الجندل وكانت لهم سوق في يثرب (المدينة) فجاء في

(٨) القرآن الكريم ـ سورة النور ٢٤ ـ ٣٣.
اليعقوبي ـ تاريخ ج١، ص ١٨٠.
ناصر الدين الاسد ـ القيان والغناء في العصر الجاهلي، دار المعارف ـ مصر ص ٤٠، وما بعدها.
واضح العمد ـ الصناعات والحرف عند العرب في الجاهلية، بيروت ١٩٨١ ص ٣٢٨، وما بعدها.

(٩) ابن قتيبة ـ المعارف، ص ٦١. دار المعارف ـ القاهرة.
ابن عساكر التهذيب ـ تحقيق بدران، ج ٦ ص، ١٩٣، دمشق ١٩٧٩م.
سعيد الافغاني ـ اسواق العرب، بيروت ١٩٧٤ ص ١١٤.
ابن حبيب ـ المحبَّر، تحقيق ايلزا شتيتر ص ٢٦٣ وما بعدها، بيروت.

(١٠) ياقوت الحموي ـ نفس المصدر، ج ١، ص ١٢٩.

(١١) سعيد الافغاني ـ نفس المصدر، ص ٢١٢ـ٢١٣.
اليعقوبي ـ تاريخ، ج١،: ص ٣١٥ (طبعة ليدن ١٩٦٤).

(١٢) J.S. Trimingham, Christianity Among the Arabs in Pre-Islamic Times – London - 1979 P. 105.
S. Hamarneh, The Role of the Nabateans in the Islamic Conquests. P. 347.
Studies in the History and Archaeology of Jordan I, Amman Department of Antiquities. 1982

المغازي عند ذكر غزوة تبوك "كانت الساقطة - وهم الانباط - يقدمون المدينة بالدرمك (الدقيق) والزيت في الجاهلية وبعد ان دخل الاسلام. فانما كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم لكثرة من يقدم عليهم من الانباط.(١٣) والذي نستنتجه من هذه الفقرات هو ان الانباط بقوا على صلتهم التجارية مع يثرب (المدينة) وان هذه الصلة استمرت كذلك عند مجيء الاسلام.

ويظهر لنا ان الانباط أخذوا يلاقون الصعوبات والشدائد والمضايقات نتيجة لاستمرار علاقتهم هذه مع المدينة وعرب الحجاز. فيذكر الواقدي ايضا انه بدومة الجندل "كان الانباط (التجار) يظلمون وانهم (حكام دومة الجندل) يظلمون من مرّ بهم من الضافطة وكان بها (دومة الجندل) سوق عظيم وتجار. وضوى اليهم قوم من العرب كثير وهم يريدون أن يدنوا المدينة" (والضافطة هنا جمع ضافط وهو الذي يجلب الميرة والمتاع الى المدن والمكاري الذي يكري الاحمال) وكانوا يومئذ قوما من الانباط يحملون الى المدينة الدقيق والزيت.(١٤)

فمن هنا نرى ان الانباط كسابق عهدهم يريدون ان يواصلوا تجارتهم مع المدينة في ظل الاسلام - هذه المرة - ولكن يظهر ان هذا لم يرق للبيزنطيين، فأوعزوا الى حاكم دومة الجندل ان يضايقهم. ويؤكد هذه الفرضية ما جاء عند المسعودي في كتابة التنبيه والاشراف فيذكر: "وكان صاحبها (دومة الجندل) اكيدر بن عبد الله الكندي يدين بالنصرانية، وهو في طاعة هرقل ملك الروم. وكان يعترض سفر المدينة وتجارهم."(١٥) ولا شك ان من بين سفر المدينة كان الانباط الذين كانت لهم سوق بالمدينة. ويؤكد ذلك ابن سعد في كتابه "الطبقات الكبرى" فيذكر عند حديثه عن هاشم بن مناف جد الرسول الكريم" ان هاشما كان يمر على سوق للانباط تقام في يثرب فخرج هاشم في عير لقريش فيها تجارات وكان طريقهم على المدينة فنزلوا بسوق النبط فصادفوا سوقا تقوم بها في السنة يحشدون لها فباعوا واشتروا.(١٦)

وحتى تكتمل صورة هذه الطرق التجارية البرية - والتي كانت في نفس الوقت طرقا للحج - علينا ان نشير الى الطريق البحري الهام على البحر الاحمر والذي يقع عليه ميناء العقبة الاردني - ايلة.

فأيلة كانت ميناء الانباط - بجانب لوكى كومى حيث منه كانت تنقل المتاجر الى بتراء، وقد كانت هذه الطريق تغص بالمسافرين والقوافل الكثيفة.

(١٣) الواقدي - المغازي، ج ٣، ص ٩٨٩. تحقيق جونس.
(١٤) ابن كثير - البداية النهاية - القاهرة ١٩٣٢ ص ٢٢-٢٣.
الواقدي - نفس المصدر، ج٣، ص ٩٨٩.
(١٥) المسعودي - التنبيه والاشراق - مكتبة الخياط بيروت ١٩٦٣، ص ٢٤٨.
(١٦) ابن سعد - الطبقات الكبرى، ج١، ص ٧٨ بيروت ١٩٥٧.

وقبل ذلك كانت ايلة بيد البطالسة الذين اتخذوا منها ميناء لنقل تجارة فلسطين الى موانىء البحر الاحمر وافريقية، كما كان ميناؤها يستقبل السفن القادمة من افريقية والمحيط الهندي. ولقد قام نزاع كبير ما بين الانباط والبطالسة حول ميناء ايلة للسيطرة عليه ولكننا هنا نركز على دور ايلة قبيل الاسلام.

ففي القرن الرابع الميلادي من الفترة البيزنطية اصبحت مدينة ايلة مركزا لمطرانية وكانت على صلة وتداخل مع القبائل المحيطة بها - التي بدورها اصبحت نصرانية - والمهم ان الحضر والبدو من سكان هذه النواحي قبيل الاسلام كانوا يتطلعون ويتأثرون ويحتذون بالمراكز الكبرى في دمشق وانطاكية وبصرى وغيرها، فسياسياً ارتبطوا مع السلطة البيزنطية ولكن مذهبيا كانوا مع حركات الطبيعة الواحدة اي مع الكنسية السورية اتباع يعقوب البرادعي السوري وقد كثرت الصوامع وانتشرت ما بين ايلة ودومة خاصة في بلدة كيلوة.(١٧)

وتصف المصادر العربية الاسلامية أن ايلة هي آخر الشام وأول الحجاز، تجتمع فيها الحجاج، وذكر الجغرافيون العرب انه فيها "زروعا وتجارة وسمكا"، ووصفها المقدسي فقال: "مدينة على طرف شعبة البحر عامرة جليلة وهي فرض فلسطين وخزانة الحجاز"(١٨).

ومن اشهر القبائل واكثرها التي استوطنت ايلة قبائل جذام فأبن خلدون يقول "ونزلت جذام من حدود ايلة الى ينبع محاذية للساحل.(١٩)

فجذام قبيل الاسلام كانت تنزل المناطق ما بين الحجاز والشام ومصر وكانت جموعها المتعددة منتشرة على مساحة شاسعة من ارض العرب تمتد من الحدود الشمالية لوادي القرى في المساحة من تبوك في الحجاز بامتداد الشمال الشرقي من وادي العربة حتى البحر الميت الى البلقاء حول عمان في الارض الاردنية ثم الى الجنوب الغربي الى غزة جنوب فلسطين. وجذام اكثر العرب إبلا وبالقرب من تبوك يرتفع جبل حسمى الذي يعتبر جبل جذام - ومنطقة حسمى تقع في الاردن اليوم في الجنوب من مدينة معان من رأس النقب الى الجنوب حيث موقع القويرة وما جاورها - وكانت لجذام رئاسة في معان وما حولها من أرض الشام وان بطن بني النافرة من جذام تعاون مع الرومان الذين عينوا

(١٧) J.S. Trimingham, Ibid.P. 120

(١٨) المقدسي - احسن التقاسيم، ص ١٧٨ - ١٧٩.
الهمذاني - صفة جزيرة العرب، ص ١٢٩.
(١٩) ابن خلدون - كتاب العبر ج٣، ص ٣٧. طبعة الكتاب اللبناني - بيروت.
القلقشندي - نهاية الأرب القاهرة ١٩٥٩. ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

فروة بن عمرو عاملا لهم على قومه وعلى من كان حوالي معان من العرب.(٢٠)

ولقد انتقلت الرئاسة في هذا الوقت الى فروة الجذامي ذلك ان الفرس الساسانيين قد أبادوا في جملة ما أبادوا ملك غسان، في حربهم مع البيزنطيين واحتلالهم الاراضي الشامية عام ٦١١م، وبعد انتصار هرقل امبراطور بيزنطة عليهم ٦٢٩م لم تتعد سيطرة الروم البحر الميت في حين كانت في السابق حتى ايلة ولسد هذا الفراغ جاء البيزنطيون بجذام وقلدوها الرئاسة بشخص فروة الجذامي في معان وما جاورها. وتقول المصادر العربية كذلك ان فروة هذا قد أسلم وتبادل الهدايا مع الرسول ثم انه صلب على ماء عفرى قرب الطفيلة.(٢١) وأريد ان أذهب مستطرداً فأقول ان جذام وهي بطون كثيرة أو بالاصح بطن متسع له شعوب كثيرة سكنت نفس المواقع تقريبا ـ مع اختلافات بسيطة ـ التي سكنها من قبل الديانيون، والأدوميون ثم الانباط ومن جاء بعدهم أهل ثمود، فازعم ان هذه الشعوب شعوب أرومية قد ذابت بعضها ببعض واندمجت وظهرت لنا بالتالي باسم جذام وقد هيمن هذا الاسم الذي حملته قبائل عربية خرجت من شبه الجزيرة (وعلى فترات) أبرزها في القرن الرابع الميلادي. فالشعوب السابقة التي ذكرناها أمدتها القبائل العربية اللاحقة التي نزلت ارض الشام بقوى بشرية غذت الارض الشامية بدماء جديدة فزادت في الكثافة السكانية وزادت بالتالي من ازدهار المنطقة وفعاليتها، هذا ولم يخلّف وجودها اي اضطراب ذي شأن اذ في حقيقة الامر، انما هي نزلت في ارض الشعوب العروبية «السامية» القديمة التي سبقتها والتي خلقت حضارات هذه المنطقة على مدى الاف السنين خدمت بها الانسان وقضية تقدمه منذ نشأة الحضارات. اذن فهذه القبائل والشعوب قد تداخلت (السكان السابقون مع اللاحقين) تداخلا واسعا وسهلا (هرمونيا) بسبب الاروما الواحدة من جهة ومن جهة أخرى فان الديار الشامية نفسها زادت باستيعابها لها قوة وفعالية ناهيك عن وحدة الحضارة في الاساس مما حفظ للجميع البقاء والاستمرار امام العناصر الخارجية ونخلص مما سبق الى القول: ان ايلة مدينة تجارية هامة غالب سكانها من جذام حيث ان هذه القبائل كانت تنزل وسط الطرق التجارية ومسالك القوافل والحجاج ما بين مصر والشام والحجاز، فكانت القوافل حين تمر بديارهم يتولى رجالها حراستها وجباية المكس من التجار الذين يجتازونها وكان عمربن الخطاب نفسه (في الجاهلية) احد الذين دفعوا العشر لزعيم جذام زنباع بن روح (في طريقه بديارهم تاجرا) (في جملة من التجار القرشيين).(٢٢)

وحين أصبح الرسول مسيطرا على الجزيرة العربية بكاملها تقريبا وامتد نفوذ المسلمين على أهم الطرق التجارية ومنها الطريق البرية المؤدية الى ايلة من اليمن وجنوب بلاد العرب وذلك حوالي عام ٩هـ/٦٣١م المعروف بعام الوفود ـ اشارة الى تقبل جموع القبائل للاسلام وبالتالي الى خضوع الجزيرة العربية للرسول ـ عندها رأى صاحب ايلة من الصواب ان تسارع الى الصلح مع الرسول خوفا على تجارتهم فقبل اسقف ايلة يحنه بن رؤبه ان يدفع الجزية وعقد صلحا مع الرسول وتبادل معه الهدايا ويؤكد ذلك الاتجاه وبشكل أوسع الواقدي حيث يقول "ان دومة الجندل وايلة وتيماء قد خافوا النبي (ص) لما رأوا العرب قد اسلمت اليه"؛ ويذهب بعض المؤرخين الى القول ان يحنه بن رؤبه اسقف ايلة هو نفسه من جذام. ناهيك ان كثيرا من اساقفة ايلة قبله كانوا من أصل عربي.(٢٣)

الاحلاف ودلالتها التجارية:

وفي النهاية أجد من الضرورة التعرض لقضية الاحلاف والعلاقات الثنائية (ولو بشكل يسير بسيط) ما بين القبائل المختلفة النازلة عند المراكز التجارية، لما في ذلك من اثر بعيد في العملية التجارية.

فعلى امتداد الطريق وتفرعاتها ما بين يثرب ـ المدينة ـ حتى بصرى. تذكر المصادر منازل القبائل المتداخلة المهمة التالية مزينة، جهينة، طي، جذام، غطفان، عذره، كلب، عاملة، بلى، لخم، عدوان وغسان، وغيرها.

لقد عرف سكان هذه المنطقة (شمال الحجاز وجنوب الاردن) قبل الميلاد سرجا معينا عرف بسرج الجمل (لشمالي جزيرة العرب) وان اختراع هذا السرج قد مكّن البدوي من اكتساب مهارة قتالية خلقت له بالتالي ظروفا اقتصادية واجتماعية أفضل وذلك لاستعمال راكب مثل هذا السرج ليديه بحرية ولسرعة الحركة، الامر الذي ساعده اكثر بالاحتكاك بالحواضر فساعد على تقدمه الاجتماعي، حتى ان ريتشارد بوليه يقرن هذا النوع من السروج بظهور العرب فيسمي فصلاً من كتابه القيم "الجمل والعجل" السرج في شمالي الجزيرة العربية وظهور العرب.(٢٤)

(٢٠) ابن خلدون ـ العبر ج٢، ص ٣٧ (بيروت الكتاب اللبناني).
الواقدي ـ نفس المصدر، ج٢، ص ٧٥٥ ـ ٧٦٩.
الطبري ـ تاريخ. تحقيق ابو الفضل، ج٣، ص ٣٦ ـ ٤٢.

(٢١) العسكري ـ الاوائل. دمشق ١٩٧٥، ج١، ص ١٦٩ ـ ١٧١.

(٢٢) الحلبي ـ المناقب المزدية ـ تحقيق صالح درادكه ومحمد خريسات عمان ١٩٨٤، ح١، ص ٦٧ ـ ٦٨.

(٢٣) الواقدي ـ نفس المصدر ج٣، ص ١٠٣١.
ابن سعد ـ نفس المصدر ج١،: ص ٢٨٢ بيروت دار صادر ١٩٥٧.
لويس شيخو ـ النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ج٢، ص ٤٤٨ بيروت ١٩٢٣.

(٢٤) Richard W Bulliet, The Camel and the Wheel, Harvard University - Cambridge 1975, P. 87

ولقد اتبعت القبائل المتعددة اساليب مختلفة لتسيير امور تجارتها وتبادلاتها.. حتى لا تستسلم كل الوقت للخصومة والغزو.. فكانت تلجأ الى الاحلاف بعضها مع بعض، وكذلك اشتركت في تعظيم اصنام مشتركة بينها واتفقت على أوقات أو أشهر حرم فيها القتال، كان الناس فيها يخرجون الى اسواق معينة للاتجار والمقاضاة ولسماع الشعر والخطابة.. وابرز هذه الاحلاف المشتركة والمهمة لبحثنا هي ما عقدته مع عدة اطراف - وبشكل مباشر وغير مباشر - قبيلة بني كلب. فكان لها حلف شهير مع تميم، وتميم مع أسد ثم مع طي وتحالفت كلب مع قبائل قضاعية كثيرة منها عاملة التي كانت مساكنها في المناطق الشرقية للبحر الميت (قبل ان تنتقل جموعها الى جبال الجليل الشمالية ويعطوها اسمهم حتى اليوم) وطبيعي ان هذا كله قد سهل امر التجارة مع المدن الواقعة ضمن هذه المناطق مثل معان والطفيلة وأم الجمال حتى بصرى الشام.

ومن الجانب الاخر فقد كان لقبيلة قريش في مكة مبادرة فذة في الاحلاف، من اجل تأمين تجارتها وتأمين الحج اليها. وكان أسبق هذه الاحلاف الحمس وان المبدأ الاساسي الذي كان يقوم عليه هو عدم انتهاك منطقة الحرام وحياد واستقلال قريش - لتسهيل شؤونها التجارية - اما القبائل التي قبلت نظام الحمس فكانت من أصول قبلية مختلفة: كنانة، وقضاعة (بفروعها المتعددة منها جذام، ولخم، وكلب) هذا بالنسبة للقبائل على الارض الشامية، ويربوع ومازن - على طريق الحيرة وفارس - وهكذا نرى ان السلسلة قد اتصلت والتحمت.(٢٥)

وعلى أساس الحمس أو بالحري بالاستفادة من تجربة الحمس، قام الايلاف والايلاف هو ابتكار قرشي، بادر اليه هاشم بن عبد مناف - واخوته - ولقد هيأ الايلاف لمكة القوة والمكانة التجارية في الفترة التي سبقت الاسلام.

ولقد استفادت مكة من العلاقات العدوانية بين الفرس الساسانيين والروم البيزنطيين - او لنقل استغلت فرصة هذه العلاقة السيئة بين هاتين الدولتين - فنهجت منهجا حياديا في تعاملها مع العسكرين الامر الذي مكّنها من الاتجار مع الشام من جهة ومع العراق واليمن من جهة أخرى بل لقد امتد نفوذ الايلاف بالتعهدات التي قطعت بسببه الى مصر، حيث تذكر المصادر العربية أن ابناء عبد مناف اخذوا العهود من حكام مصر... بل ان تجارتهم بلغت حتى انقره.(٢٦)

ونتيجة معروفة لهذا الايلاف فلقد نظمت الرحلتان رحلة الصيف ورحلة الشتاء "لأيلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف" والايلاف باختصار شديد هو ان يأمن التجار على قوافلهم، فكان المقيم رابحا والمسافر محفوظا خوفا من الهجوم على الركبان كما كان شائعا قبيل الاسلام فكان العرب يتلقون الركبان ويشترون منهم الطعام (لاحتكاره) ثم بيعه بسعر عال للفقراء والبدو وجاء في صحيح البخاري "لا تلقوا الركبان... ولا يبع بعضكم على بعض ولا يبع حاضر لباد."(٢٧)

ولقد ادى الايلاف الى تقوية الصلات التجارية ما بين مكة وبلاد الشام - وخصوصا على الطرق المؤدية من مكة حتى بصرى وبعض موانيء البحر الابيض المتوسط الشامية مثل غزة في الجنوب وصور في الشمال، فكانت مراكب التجار ترسو في ميناء الجار (قرب ينبع) حاملة الطعام من مصر الى الحجاز، وقد اطلق المقدسي على هذا الميناء اسم "خزانة مصر" ناهيك عن المراكز التجارية الاخرى للمكيين في كل من بصرى، واذرعات والبلقاء. فلا غرابة ان أطلق على قريش "قريش التجار" فكان التجار يجلبون من الشام لمكة زيت الزيتون والقمح - من حوران والبلقاء - والخمور والجواري والمواد المصّنعة كالاسلحة والمنسوجات.(٢٨) ونتصور ان هذه التجارة قد يسرّت لزعماء مكة المعرفة الدقيقة للأوضاع السائدة في بلاد الشام (خاصة جنوبها) وقوت صلاتهم وروابطهم باهلها وزعمائها خاصة هؤلاء التجار الذين خرج من صفوفهم الصحابة الاولون قواد جيش الفتح الاسلامي الميامين.

(٢٥) ابن حبيب - نفس المصدر ص ١٧٨ - ١٧٩.
كستر - نفس المصدر ص ٦٢- ٦٥.

(٢٦) ابن سعد - الطبقات جـ ١: ص ٧٥.

(٢٧) البخاري - صحيح البخاري كتاب البيوع - ٢٧ طبعة ليدن ٣٤.

(٢٨) اليعقوبي - البلدان - ص ٧٥ تاريخ، ح١، ص ٢٨٠.
المقدسي - احسن التقاسيم، (المطبعة الاوروبية) ص ٩٧.

التجارة الدولية في الاردن في العصر المملوكي

Dr Yousef Ghawanmeh
Chairman, Department of History
Yarmouk University
Irbid
Jordan

بقلم
الدكتور يوسف غوانمه
الاستاذ المشارك ومدير دائرة التاريخ
جامعة اليرموك - اربد

كان لبلاد الشام دور متميز في التجارة الدولية منذ أقدم العصور، ونالت منطقة شرق الأردن حظا وافرا من تلك التجارة، منذ أن أصبحت الطرق التجارية تتجه جنوبا نحو البحر الاحمر والجزيرة العربية عبر الأردن الحالي، فازدهرت لذلك كل من: أيلة (العقبة)، والبتراء، وعمان، وجرش.(١) ولم تنته العلاقات التجارية بين الشام والغرب الاوروبي بالفتوحات الاسلامية، فالعرب لم ينكفئوا على انفسهم بل اعطوا التجارة والعلاقات الدولية عناية خاصة، وفتحوا أسواق الشام وتجارته امام الغرب الاوروبي بشكل واسع.(٢) وظلت اهمية منطقة الاردن قائمة طيلة العصر الاسلامي، فدروبها بقيت تخدم حركة المواصلات والاتصالات البريدية بين الحجاز وبلاد الشام ومصر، ففي العصر الاموي يبرز ثراء مدينة دمشق التجاري والاقتصادي في وسط بلاد الشام، وتبقى منطقة الاردن همزة الوصل بين العاصمة والجزيرة العربية.(٣) وفي العصر العباسي تنشط مدينة عمان، ويتجلى دورها بخروج شبكة من الاتصالات والمواصلات منها، لتربطها بالعراق والحجاز وبقية المدن الشامية.(٤) ثم ان دور بلاد الشام في التجارة الدولية ازداد في فترة الوجود الفرنجي في المنطقة، فالدويلات الايطالية قدمت المساعدات العسكرية لمملكة بيت المقدس، نظير امتيازات تجارية في الموانيء الشامية.(٥) وبقي هذا الدور قائما في العصر المملوكي، فاستقر بالمدن الشامية وموانئها عدد كبير من تجار فينيسيا، وجنوا، وأمالفي، وفلورنسا، وقطلونيا، وبرشلونة، وفرنسا.(٦) وبعض مواطني شمال أوروبا المرافقين للجنويين والبنادقة. كما استقر فيها وكلاء الشركات الاجنبية الاوروبية التي لها فروع في الشرق، نذكر منها شركة Bardi الفلورنسية، التي كان لها فرع في مدينة بيت المقدس.(٧)

ثم أن سبب اقبال الاجانب على بلاد الشام بهذا الشكل يرجع الى اتصالاتها الوثيقة والمباشرة مع اسواق الشرق، كما أن مدنها وموانئها كانت مهبط الحجاج المسيحيين الغربيين الى بيت المقدس.(٨) وكانت مواسم الحج الاسلامية والمسيحية فرصة للتبادل التجاري بين الشرق والغرب، ومن هنا فان اسواقها فاقت اسواق مصر في تنوع السلع التي ترد اليها.(٩) وفي هذا المجال لا بد أن نذكر قبرص التي كانت تستورد التوابل والسلع الشرقية عبر الطريق القادم من سوريا وموانئها، وقد اكتظت أسواقها بالسلع الشرقية، حتى ان احد الرحالة الالمان قال: (ان التوابل

(١) Grant, The Syrian Desert. London, 1937, P. 58, 59

أيلة (العقبة): مدينة على ساحل بحر القلزم، وهي آخر الحجاز، كان بها زرع يسير، وهي على طريق حجاج مصر، ذات تجارة هامة (ياقوت، المشترك وضعا، ص ٣١).

البتراء: وعرفت في المصادر العربية بالرقيم، مدينة بالقرب من البلقاء، بيوتها منحوتة كلها من صخر كأنها حجر واحد (الاصطخري، مسالك الممالك، ص ٦٤).

عمان: بلد في طرف الشام، وبالقرب منها الكهف والرقيم، تشتهر بالزراعة والتجارة وبها جامع مفسس (ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص ٧١٩).

جرش: مدينة من بلاد حوران، كانت مركزا عمرانيا هاما، وقد أضحت خاوية على عروشها (العمري، مسالك الابصار، ج١، ص ٢٣١).

(٢) Lopez, (Robert), The Commercial Revolution of the Middle Ages, London, P. 60.

(٣) Grant, op. cit. P. 65.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، طبعة ليدن، ١٩٠٦، ص ٢٥٠.

(٥) Fulcher of Chartres,
A History of the Expedition to Jerusalem, Translated by: Rita Rayan,New York, 1973, P. 151, 152.

(٦) Grant, op.cit. P. 71.
Sapori (Amande),
The Italian Merchant in the Middle Ages, New York, 1970, p. 51.
Newton (Arthur),
Travel and Travellers of the Middle Ages, London, 1926, P. 122, 124.

(٧) Sapori, op. cit, P. 51.

(٨) Lapidus, Muslims Cities in the Later Middle Ages, Harvard University, U.S.A. 1967, P. 24.
Grant, op. cit. P. 70.

(٩) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ١٤٧.

في قبرص اكثر من الخبز في المانيا).(١٠) وكانت دمشق وبيت المقدس وحلب وبيروت وعكا ويافا وطرابلس وصور وصيدا من المدن التي ازدهرت تجاريا في العصر المملوكي، واستقر فيها عدد من التجار الاجانب.(١١)ومما تجدر ملاحظته ان الدول الاوروبية بنت علاقات تجارية متطورة مع مصر وبلاد الشام، واعتمدت هذه التجارة على السلع المتبادلة بين الشرق والغرب، فالسلع الشرقية تركزت بشكل رئيسي على التوابل، و الحرير والعاج، وبالمقابل تركزت صادرات الغرب الى الدولة المملوكية على الحديد، والاخشاب، وأدوات الملاحة، والرقيق.(١٢)

وقد لعب طريق البحر الاحمر دورا متميزا في نقل السلع الشرقية الى المدن الشامية، واعتبر البحر الاحمر احدى شرايين التجارة الدولية منذ أقدم العصور.(١٣) ونهضت مكة في وسط الحجاز كمركز تجاري له أهميته، وارتبطت بعلاقات تجارية قبل الاسلام مع الهند والصين واليمن والخليج العربي، والعراق والشام والساحل الافريقي. واعتمد اقتصادها على التجارة بالدرجة الاولى، فقدرت بعض المراجع صادراتها السنوية من السلع الشرقية بمبلغ ١٥ر٠٠٠ر٠٠٠ دولار.(١٤) ولكن التطور الكبير لتجارة البحر الاحمر تظهر في العصر الايوبي والمملوكي، حتى أصبح بحق أهم شريان دولي للتجارة الشرقية، وذلك بعدما تعطل الطريقان الآخران: طريق الخليج العربي، وطريق أواسط آسيا، بسبب الظروف غير المستقرة سياسية وعسكرية التي ألمت بالأقطار المحيطة بهما.(١٥) وقد استغل المماليك بذكاء هذا الطريق التجاري، فسنوا الانظمة والقوانين التي من شأنها جلب التجار الاجانب الى بلادهم. نذكر من ذلك المرسوم الذي اصدره السلطان قلاوون ٦٧٨هـ - ٦٨٩هـ (١٢٧٩ - ١٢٩٠م)، للتجار الاجانب في الشرق والغرب يدعوهم لزيارة بلاده وموانئه، وجلب سلعهم، حيث سيلاقون المعاملة الحسنة، والتسهيلات الخاصة، بعيدا عن الجور والظلم، فالعدل في بلاده سيحميهم. ومما ورد في مرسومه قوله:

(فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم، فليأخذ الأهبة في الارتحال اليها، والقدوم عليها، ليجد الفعال من المقال اكبر، ويرى احسانا يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر، ويحل منها في بلدة طيبة ورب غفور، وفي سلامة من النفس والمال... ومن أحضر معه بضائع من بهار واصناف تحضرها تجار الكارم فلا يخاف عليه في حق، ولا يكلف أمر يشق، أبقى لهم العدل ما شاق ورفع ما شق.. الخ)(١٦). ويرى Lapidus ان حسن الضيافة والتفهم الجيد والمعاملة الحسنة من المماليك، شجعت التجار الاوروبيين للأتجار معهم(١٧). ثم ان التجار العرب المسلمين كونوا في العصر المملوكي مستوطنات ومراكز تجارية في وسط وشرق أفريقيا وفي المدن الهندية والصينية الساحلية وجزر جنوب شرق آسيا(١٨).

وحماية للتجارة اقام المماليك الدرك لحراسة الطرق التي تنتقل من خلالها المتاجر والسلع المختلفة، وبنوا الخانات والفنادق خدمة للمسافرين، وأشاعوا الأمن والأطمئنان فيها، مما مكن القوافل التجارية التنقل بحرية وأمان في الدروب والمسالك الشامية المختلفة.(١٩)

وكان لميناء أيلة (العقبة) على الطرف الشمالي للبحر الأحمر دوره في حركة التجارة الدولية، فأيلة اتصلت منذ القدم بالبتراء وبصرى بطريق اطلق عليه فيما بعد (الطريق السلطاني).(٢٠) ولكن دور هذا الميناء يبرز واضحا في العصر المملوكي، فقد كانت السفن التجارية ترسو فيه، فابن اياس يذكر عن وجود (قصر في (أيلة) يسكن فيه قباض المكوس بسبب مراكب التجار التي ترد هناك من الهند واليمن والصين وغير ذلك من البلاد).(٢١) ومن هذا الميناء تنقل السلع برا عبر الهضبة الاردنية الى دمشق وبيت المقدس وحلب.(٢٢) وساعد في خدمة حركة التنقل هذه خانات:

(١٠) Sapori, op. cit. P. 83.

(١١) Lapidus, op. cit. P. 24.

(١٢) Lopez, op. cit. P. 63.

(١٣) Thcmpson, An Economic and Social History of the middle Ages, London, 1928, P. 186.

(١٤) Ibid, P. 186.

(١٥) Lapidus, op. cit. P.52.
Grant, op. cit. P. 70.
Newton, op. cit. P. 125, 126.
Lopez, op. cit. P. 108.

(١٦) القلقشندي، صبح الاعشى، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية، وزارة الثقافة والارشاد القومي، القاهرة، ج١٣، ص ٣٤٠، ٣٤١.
الكارم والكارمية: اسم اطلق على ملاك السفن والتجار المترددين على بلاد الهند، والصين، والساحل الشرقي لأفريقيا وبدأ نشاط هؤلاء التجار منذ العصر الفاطمي، ولكنهم بلغوا أوج قوتهم ونفوذهم في العصر الايوبي والمملوكي، وشكلوا اكبر قوة مالية آنذاك. وقد عمل المماليك على الاطاحة بهذه القوة التجارية والتقليل من نفوذهم الاقتصادي والاجتماعي، ومنعوهم من التمتع بالنفوذ السياسي، فلم يرغبوا بوجود قوة اخرى تناهض قوتهم (جوايتن، دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية، ترجمة عطية القوصي، الكويت ١٩٨٠، ص ٢٧٩) وانظر: القلقشندي، صبح الاعشى ج٤، ص ٣٢).

(١٧) Lapidus, op. cit. P. 23.

(١٨) Newton, op. cit. P. 90, 100.

(١٩) النويري: نهاية الارب ج٢٨ لوحة ٢٣ (مخطوط دار الكتب المصرية، القاهرة) القلقشندي، نهاية الارب في معرفة انساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٣٠٤ وانظر:
Lapidus, op. cit. p.18

(٢٠) Grant, op, cit. p. 40

(٢١) ابن اياس ، نشق الازهار في عجيب الاقطار، لوحة ٨٧ (مخطوط دار الكتب المصرية، القاهرة).

(٢٢) Grant, op. cit. p. 40

العقبة، والحسا، وعنيزة، والقطرانة، وعمان، فاقيمت البرك قرب هذه الخانات لسقيا المسافرين كما أوجد المماليك مركزا لقباض المكوس في جسر الحسا على امتار قليلة من الخان، كان المتحصل منه عشرة آلاف مثقال من الذهب سنويا.(٢٣) بالاضافة الى مركز آخر اقاموه في (بويب العقبة) جنوب العقبة الحالية، لتمكيس السلع التجارية القادمة برا من جدة في طريقها الى الشام ومصر عبر أيلة (العقبة) وسيناء.(٢٤)

وخدمة لحركة التجارة البعيدة المارة عبر منطقة شرق الأردن أقيمت الأسواق الموسمية وبالأخص في فترة مرور قوافل الحاج الشامي والمصري في طريقها الى الحجاز. فقوافل الحجيج هذه خدمت حركة التجارة العابرة (الترانسيت)، فكان موسم الحج فرصة للتجار للبيع والشراء وجلب السلع الشرقية من الحجاز، ونقل السلع الشامية بالمقابل.(٢٥) فذكر ابو المحاسن ان مدينة جدة في أواخر العصر المملوكي كانت الميناء الرئيسي للسلع الشرقية.(٢٦) لذا بنوا حولها سورا وزودوه بالأبراج الحصينة والمدافع.(٢٧) وكان يصل الى مكة في مواسم وصول سفن الهند الى عدن ما لا يقل عن ٨٠ر٠٠٠ جمل، وفي العادة يوقت وصولها في معظم السنوات في موسم الحج، وتستمر هذه القوافل في طريقها الى دمشق، ومن ثم تعود بسلع الشام والغرب الأوروبي الى عدن ومنها الى الهند.(٢٨)

وكانت قوافل الحاج الشامي تسير من دمشق وتتجمع في مزيريب قرب درعا، ومنها الى الرمثا فتقيم فيها عدة ايام. وقد دلت الكشوف الأثرية التي أجرتها جامعة اليرموك في موقعها الدائم القريب من الرمثا عن وجود آلاف القطع الفخارية المملوكية على مساحة كبيرة وفي اماكن متعددة، مما يدلل على أن هذه القوافل كانت تقيم في هذا المكان للراحة وللبيع والشراء، وكانت فرصة لتجار المناطق المجاورة، ورجال القبائل العربية لبيع ما لديهم وشراء ما يحتاجونه. ثم تواصل هذه القوافل سيرها الى الظليل الواقعة بين المفرق والزرقاء، ومنها الى الزرقاء وهي بلدة وافرة المياه، فتقيم فيها عدة ايام لتواصل سيرها الى زيزاء قرب عمان، ومنها الى اللجون، ثم الى الثنية خارج الكرك، فتقيم اياما ثم تواصل سيرها الى معان ومنها الى عقبة الصوان وذات حج في طريقها الى الحجاز.(٢٩) وقد تغير درب الحاج الشامي اكثر من مرة منذ القرن الأول للهجرة (السابع الميلادي).(٣٠) ففي أحيان تسير القوافل من دمشق الى الكسوة، الصنمين، زرعه، بصرى، ومن بصرى كانت تتجه في فترة الاحتلال الفرنجي لمنطقة جنوب الاردن الى الازرق، باير، الجفر، الى ان تصل الى معان.(٣١) أو تتجه من بصرى الى زيزاء رأسا، وقد سلك هذا الطريق ابن بطوطه في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، ومن زيزاء الى اللجون، ثنية الكرك، معان، ومن معان الى عقبة الصوان، ذات حج، وادي بلدح، تبوك ثم العلا فالمدينة المنورة.(٣٢) وفي احيان كان ركب الحاج الشامي يتجه من معان الى ايلة (العقبة) ثم الى تبوك في طريقه الى الحجاز.(٣٣) ويذكر ابن فضل الله العمري ان اسواقا كبيرة كانت تعقد في هذه المحطات وصفها بقوله: (وهي قرى عامرة ذوات ماء واسواق ومعايش وجلابة).(٣٤) وتذكر المصادر ان سوقا تجاريا متشعبا كان يعقد في مدينة ايلة (العقبة) في العصر المملوكي وصفه ابن فضل الله العمري قائلا: (وهو مكان مقصود تأتي اليه اجلاب الشام، وتقام به الاسواق العظيمة الممتدة المتشعبة التي لا توجد في امهات الاقاليم وكبار المدن. ولعل انه لا يعدم فيها موجود من: الخيل، والابل، والغنم، والدقيق، والشعير، والعلف وانواع المآكل والمشارب والمحامل والأكوار والرحال، والسلاح، والقماش،

(٢٣) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشر بولس راويس، ١٨٩٤، ص ١٠٨، ١٣٢.

(٢٤) ابن شاهين، المصدر السابق، ص ١٣٢.
وانظر: المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٤، ج٢، ص ٢٥٦.

(٢٥) المقريزي، السلوك، ج٤ ، ص ٢٥٦.

(٢٦) ابو المحاسن، حوادث الدهور في مدى الايام والشهور، تحقيق وليم بوير، كلفورنيا، ١٩٣١م، ج١، ص ٣٢٧.

(٢٧) ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط الشعب، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٠٤٤.

(٢٨) ابو المحاسن، حوادث الدهور، ج١، ص ٣٢٧.
نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية، ص ١٣٩.

(٢٩) ابن بطوطة، الرحلة، تحقيق علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩م، ج١ ص ١٢٩.

(٣٠) Grant, op. cit. p. 223

(٣١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت، ١٩٧٩م، ج ١١، ص ٥٢٩، ٥٣٠.

(٣٢) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢.
الظليل: وادي يقع شمال الزرقاء على الطرق القادمة من دمشق الى مصر والحجاز قديما، وما زال يشاهد الى اليوم بين المفرق والزرقاء ويشتهر الان بمزارعه وبساتينه العديدة (الباحث).
زيزاء: بلدة كبيرة بالبلقاء جنوب عمان بها بركة ماء، كانت محطة لقوافل الحجاج وبها تقام لهم سوق للتجارة (ابو الفداء تقويم البلدان ص ٢٤٧، ياقوت، ج٢، ص ٩٦٦).
اللجون: منزلة في طريق المدينة قرب البلقاء وهي غير اللجون المعروفة في فلسطين (القرماني، اخبار الدول وآثار الاول، ص ٤٧٥).
العلا: اسم لموضع من ناحية وادي القرى بينها وبين الشام (ياقوت، معجم البلدان، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م، ج٤، ص ١٤٤).

(٣٣) Grant, op. cit. P. 224.

(٣٤) ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار في ممالك الابصار، ج١، ق١ لوحة ١٧١ (مخطوط دار الكتب المصرية).

والفرش والامتعة، وغير ذلك، وأيام اقامة الحاج هذا ايام مواسم).(٣٥)

ولا بد من الاشارة الى أن دمشق ارتبطت بالقاهرة بخط يسير عبر منطقة شمال الاردن في اربد مرورا بالاغوار وفلسطين، فالقلقشندي يذكر ان المنطقة الواقعة قبلي دمشق والتي عبر عنها (بالصفقة القبلية)، هي طريق الابواب السلطانية الشريفة الى القاهرة، وممر التجار قاصدين الديار المصرية.(٣٦) وتشمل هذه الصفقة بلاد حوران والغور وما الى ذلك، فالأغوار جميعها كانت داخلة فيها.(٣٧) وقد ربط المماليك بلاد الشام بالقاهرة بخطوط المواصلات البريدية: الطائرة والبرية والمنارات، وكانت مدينة اربد احدى هذه المراكز. كما نقلوا الثلج على الجمال من دمشق الى القاهرة عبر هذا الطريق.(٣٨) وقد استخدم هذا الطريق لحركة الجيوش العسكرية المملوكية مرورا بالأغوار واربد.(٣٩) ولهذا السبب فقد بني في مدينة اربد الخانات (الفنادق) خدمة للمسافرين والتجار كما اقيمت لهم بركة كبيرة لسقيا دوابهم.(٤٠) وتذكر المصادر أن القوافل القادمة من بخارى وسمرقند وشيراز وآمد وبلاد الأرمن والعراق كان لا بد لها المرور عبر هذا الطريق مرورا بمدينة اربد في طريقها الى القاهرة، وكانت هذه القوافل تحمل معها صنوف السلع المشرقية والشامية والمختلفة.(٤١) وقد اقام المماليك الجسور فوق نهر الاردن خدمة لحركة المواصلات والاتصالات بين الشام وفلسطين والديار المصرية.(٤٢)

مدينة عجلون وعلاقاتها التجارية:

تذكر بعض المصادر عن وجود المنشآت والمرافق التجارية في المدن الشامية والمصرية خدمة لحركة التجارة الدولية، نذكر منها: القيساريات، ودور الوكالة. وخصصت هذه المنشآت للتجار القادمين الى تلك المدن، فبعضها اختصت بالتجار الأوروبيين.(٤٣)وأخرى بالتجار الوافدين من الأقطار العربية والاسلامية. وقد عكف الأمراء المماليك على بناء هذه القيساريات للكسب واستثمار الأموال. والقيسارية Caesarea أو Cesarieكلمة لاتينية ظهرت في بلاد الشام قبل مصر، وهي بناء مستطيل أو مربع، مسقوف تعلوه الرباع، وهي في العادة غرف تؤجر للتجار والصناع للاقامة فيها، وتحتوي كل قيسارية على عدد من المحال التجارية التي تؤجر للتجار والمصانع الصغيرة، بالاضافة الى أنها تعرض السلع للبيع بالجملة.(٤٤) ولكل قيسارية حارس يحرسها، وباب ضخم يغلق ليلا.(٤٥)

ومن المرافق الأخرى التي خدمت حركة التجارة الدولية: دور الوكالة، ويرى المقريزي أن لا فرق بين الوكالات والخانات والفنادق والقيساريات، فهي جميعها أبنية ومؤسسات تقوم بجانب مهمة البيع والشراء، بمهمة اقامة التجار الوافدين من الخارج، وحفظ أموالهم وخزنها، بالاضافة الى انها تؤدي مهمة البيع بالجملة والتجزئة.(٤٦) ولكل دار من دور الوكالة هذه وكيل يسمى (وكيل دار الوكالة)، يقوم بخزن سلع زبائنه ومن ثم بيعها، وتأمين ثمنها لأصحابها. فهو يقوم مقام (الصيرفي)، فالتجار الأجانب كانوا يودعون أموالهم عنده وهو بالمقابل يدفع لهم ما يقابلها من عملة بلادهم.(٤٧)

وقد أقام المماليك في منطقة شرق الأردن الخانات خدمة للتجار والمسافرين، كان بعضها يقدم الغذاء وحذاء الخيل مجانا

(٣٥) ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار، ج١، ق١ لوحة ١٧١ (مخطوط).

(٣٦) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٢، ص ٣١٤.
وانظر: Lapidus, op. cit. P. 12.

(٣٧) القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ١٠٣.

(٣٨) والمستقر في كل مركز ست هجن، خمسة للاحمال وهجين للهجان، تكون كل نقلة خمسة احمال، وهذه الهجن من الشام الى العريش على نيابة دمشق ما عدا جنين فهي على نيابة صفد. ومن الورادة الى القاهرة من المناخات السلطانية والكلفة على مصر. ولا تستقر هذه الهجن بهذه المراكز الا أوان حمل الثلج وهي من حزيران الى تشرين ثاني وعدة نقلاته ٧١ نقلة. (القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٤، ص ٣٩٧).
اربد: بالفتح ثم السكون، مدينة بالأردن قرب طبرية، تقع على يمين طريق مصر (البغدادي، مراصد الاطلاع، ج١ ص ٤١).
القلقشندي، صبح الاعشى، ج ١٤، ص ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٩٣، ٣٩٦، ٣٩٩.

(٣٩). بيبرس الداودار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج ٩، لوحة ١٥٠ (مخطوط مكتبة جامعة القاهرة.)
النويري: نهاية الارب ج٣٠، لوحة ٥٥ (مخطوط).

(٤٠) ظلت هذه البركة موجودة في اربد حتى الستينات، وقد شاهدتها اذ كانت تمتلىء بالمياه في فصل الشتاء، وسمي الحي المحيط بها (حي البركة)، ولكن البلدية طمرتها وانشأت فوقها موقفا لسيارات الاغوار.

(٤١) المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٥٩٢.
ابن طولون الصالحي، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، المؤسسة المصرية للطباعة، القاهرة، ١٩٦٢، ج١، ص ١٨، ١١٠، ١١٩.

(٤٢) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، وزارة الثقافة والارشاد، القاهرة، ج ٧، ص ١٤٠، ١٤١.

(٤٣) Lopez, op. cit. p. 100.

(٤٤) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية، ص ٢٩٥، ٢٩٦.

(٤٥) ابن جبير، الرحلة، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م، ص ٢٣٦.

(٤٦) المقريزي، الخطط، طبعة بولاق، ١٩٠٧م، ج ٣، ص ١٤٤. وانظر:
Dozy, Supplement aux Dictionaries Arabes, Vol. 11, p. 432
نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص ٢٨٧.

(٤٧) جوايتن، دراسات في التاريخ الاسلامي، ص ٢٧٢.

للمارين والمقيمين فيها.(٤٨) ووجد بجانب كل خان بركة ماء وحانوت ليتزود منه المارون بما يشاؤون.(٤٩) أطلق عليها (فنادق مبيت القوافل) Caravanserais حيث يستريح التجار ودوابهم فيها.(٥٠) نذكر منها: خان العقبة، وخان عنيزة، وخان معان، وخان الحسا، وخان القطرانه، وخان ضبعة، وخان عمان، وخان الكرك.(٥١) ومازال، ماثلا للعيان من هذه الخانات: العقبة، والحسا، والقطرانه، وضبعة.(٥٢) وهي أبنية مربعة الشكل من طابقين بداخلها ساحة سماوية يتوسطها بئر ماء، ويحف بهذه الساحة بوائك كبيرة لمبيت الدواب وخزن البضائع، أما الطابق العلوي ففيه غرف صغيرة أعدت لمبيت التجار والمسافرين. ووجد في كل خان مسجد صغير، وفي زواياه الأربعة أبراج للدفاع ومزاغل للمراقبة، ولكل خان مدخل واسع ببوابة ضخمة تغلق ليلا، فهي والحالة هذه خانات حصينة، «يأوي اليها من ألجأه المساء، وينام آمنا من طوارق الأعداء.» (٥٣)

ولقد وجدت هذه المرافق والمنشآت التجارية في بعض المدن الشامية والمصرية كدمشق، وحلب وبيروت، وعكا، وطرابلس، وبيت المقدس، والقاهرة، والاسكندرية، فما هو دور المدن الأردنية من هذه المرافق؟ فمن خلال رصدنا للنصوص التاريخية ومشاهداتنا الأثرية، وجدنا الخانات في بعض المدن: كعمان، والكرك، ومعان، والعقبة. اما القيساريات والوكالات فلدينا نص يؤكد وجودها في مدينة عجلون، فلماذا وجدت في هذه المدن الداخلية، وهل يعني وجودها ارتباط مدينة عجلون بعلاقات تجارية خارجية؟.

تقع عجلون في وسط جبال عجلون عند أقدام جبل عوف الذي يطل عليها من الغرب.(٥٤) وتبعد عن عمان مسافة ٧٣كم وعن اربد مسافة ٣٢كم، وعلى قمة جبل عوف اقام صلاح الدين الأيوبي قلعة عجلون سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) في موقع استراتيجي جيد.(٥٥) فهل كانت عجلون مدينة بالمعنى المتعارف عليه في العصور الوسطى؟ أم انها مجرد بلدة Town ، تقدم خدمات محلية بسيطة الى سكانها والمناطق المجاورة؟ أو أنها لعبت دورا أكبر في بيع السلع والصناعات الى أسواق أخرى متعددة، وكان لها اتصالها التجاري مع الأسواق المجاورة؟ فان كانت كذلك فهي والحالة هذه مدينة City .(٥٦) وباعتقادي ان عجلون كانت مدينة بالمفهوم الوسيط، فهي مركز حكم، وفيها مركز للقضاء، وجباة الضرائب، وقوات عسكرية تقيم في قلعتها، بالاضافة الى دورها الاقتصادي والتجاري والثقافي المتميز في منطقة شمال الأردن.

وعجلون مدينة جميلة في قلب منطقة خصبة، تحف بها الأودية ذات الينابيع الغزيرة، وغابات السنديان، وأشجار الزيتون والفاكهة المختلفة. وقد نالت حظا وافرا في العصر المملوكي، فجعلوا منها نيابة تابعة لمدينة دمشق، وفي أحيان جعلوها نيابة مستقلة يكون التعيين فيها من قبل السلطان بالقاهرة. ومما يؤكد، وجهة النظر هذه، النص الموجود في النقش الكائن على ضريح الصحابي أبو عبيدة بن الجراح في غور الأردن، وكان السلطان الظاهر بيبرس ٦٥٨-٦٧٦هـ (١٢٦٠ - ١٢٧٧م) قد كلف نائب عجلون ببناء هذا الضريح ومما جاء في النقش:

... وذلك بنظر الأمير الأجل الأعمال الكبير ناصر الدين منكلي الجاشنكير الظاهري السعيدي نايب مملكة عجلون المحروسة في شهر ذي الحجة سنة خمس وسبعين وستمئة.(٥٧)

(٤٨) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة العاشرة، دار الجيل، بيروت، ج٢، ص١٧٠.

(٤٩) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص ٣١.
القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص ٣٧٨، ٣٧٩.

(٥٠) Lapidus, op. cit. p. 18.
Grant, op. cit. p. 154.

(٥١) عن خان الكرك انظر:
ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج٢، ص ١٧٠.
وعن خان عمان انظر:
Conder, The Survey of Eastern Palestine, London, 1889, p. 59.
وعن خان معان انظر:
سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، نسخة مصورة بشيكاغو، امريكا، ج٨، ص٤٢٩.

(٥٢) هناك دراسة عن هذه الخانات المملوكية في:
يوسف غوانمه، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي دار الفكر عمان، ط٢، ١٩٨٢م، ص ٢٣٢ - ٢٤٩.
وقد اكتشف الدكتور Thomas Parker من جامعة كارولاينا الشمالية في الولايات المتحدة قطعة من النقد المملوكي تعود للقرن الرابع عشر أو الخامس عشر الميلادي في خان القطرانه، ويقوم الآن باعداد دراسة عن هذه القطعة وسينشرها في مجلة:
Bulletin of the American Schools of Oriental Research Supplement, in 1987.

وهذا تأكيد لوجهة نظرنا بأن خانات الأردن هي مملوكية وليست عثمانية.

(٥٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٧٨.

(٥٤) سمي بجبل عوف لأنه كان ينزله قوم من بني عوف من جرم قضاعة، فعرف بهم (القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص٨٦).

(٥٥) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق القسم الخاص بتاريخ لبنان والأردن وفلسطين، ص ٨٦.
القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٠٥.

(٥٦) Hourani (A.H.), The Islamic City in the Light of Recent Research, from the Islamic City, University of Pensylvania, U.S.A. p.9.

(٥٧) انظر نص النقش في كتاب: أضرحة الصحابة في غور الاردن (منشورات مركز الدراسات الأردنية - جامعة اليرموك - للباحث) ١٩٨٦م.

وهنا نلاحظ أن الظاهر بيبرس ولّى على عجلون أميرا برتبة جاشنكير، وهي احدى وظائف أرباب السيوف، ويتولاها أمير مقدم، وهي من المراتب الكبرى في الدولة المملوكية.(٥٨) وقد فعل الظاهر بيبرس ذلك لأن الدول المملوكية كانت في طور التأسيس، ولأهمية منطقة عجلون وقربها من دمشق العاصمة الثانية للدولة المملوكية، التي كانت تمثل المركز الثاني بعد القاهرة، ونوابها كانوا دوما طامعين بالسلطنة، وفيها يثورون على الدولة. وعجلون في هذه الحالة تستطيع الوقوف في وجه أي توسع لنائب دمشق، بالاضافة الى ان الخطر الفرنجي ما زال قائما في فلسطين والساحل الشامي، أضف الى ذلك عناصر المعارضة الأيوبية في بلاد الشام الذين كانوا ينتهزون أي فرصة للانقضاض على المماليك. وقد قام السلطان المنصور قلاوون، بنفس التصرف فيما بعد عندما جعل من الصلت نيابة مستقلة على رأسها أمير برتبة كبيرة ولديه قواته كي يقف في مواجهة السعيد والمسعود أبناء الظاهر بيبرس في الكرك الذين حاولوا التوسع شمالا حتى ان قواتهم وصلت الى صرخد في حوران.(٥٩) وهذا يدلل على الأهمية التي كان يوليها السلطان الظاهر بيبرس لمدينة عجلون ومنطقة شمال الأردن الحالي، بسبب مزاياها الاستراتيجية والاقتصادية. وبعد وفاته أعيدت عجلون نيابة صغيرة تابعة لدمشق، لتصبح في أواخر دولة المماليك الثانية (الجراكسة) نيابة مستقلة يتم تعيين نائبها من السلطان بالقاهرة.(٦٠)

وبسبب هذا الاهتمام بمدينة عجلون في العصر المملوكي نلاحظ أنها بلغت أقصى درجة من التقدم العمراني والثقافي والاقتصادي، فابن بطوطة مر بها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ووصفها قائلا: وهي مدينة حسنة، لها أسواق كثيرة، وقلعة خطيرة، ويشقها نهر ماؤه عذب.(٦١) ومن هنا فقد أقام الأمراء فيها القيساريات نذكر منها: قيسارية الأمير سيف الدين بكتمر، وقيسارية الأمير تنكز بن عبد الله نائب دمشق وقفها على البيمارستان الذي بناه في مدينة صفد، والقيسارية القديمة.(٦٢)

وللتدليل على أهمية عجلون الاقتصادية والتجارية، هناك ثلاث وثائق الأولى ذكرها مفضل بن ابي الفضائل في كتابه: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد في الجزء الذي نشر في فرايبورغ بالمانيا سنة ١٩٧٣م ويتضمن الأحداث من سنة ٧١٧- ٧٤١هـ. ففي صفحة ٤١ ذكر ان سيلا عظيما دهم مدينة عجلون في سنة ٧٢٨هـ (١٣٢٨م)، وأثبت صورة المحضر الذي أرسله نائب عجلون الى دمشق واصفا فيه ما فعله السيل في المدينة.(٦٣) والوثيقة الثانية ذكرها النويري في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب الجزء ٣١ (مخطوط)، وهي نسخة المحضر المرسلة من مدينة عجلون الى دمشق يورد فيها ما أحدثه السيل بالمدينة من خراب (لوحة ٩١). أما الوثيقة الثالثة فهي نسخة الكتاب الوارد من عجلون والتي ذكرها الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه ونقلها عنه الشيخ علم الدين بن البرزالي، وأثبتها النويري في سفره لوحة ٩١، ٩٢ (مخطوط).(٦٤)

ومن خلال استعراضنا للنصوص الثلاثة نجد تباينا كبيرا فيها من حيث الديباجة وتفاصيل السيل، فأكثرها ايجازا ما أورده مفضل بن أبي الفضائل، ويأتي في المرتبة الثانية النص الذي ذكره النويري وأسماه نسخة المحضر المرسل من عجلون، اما النص الثالث الذي نقله النويري عن الجزري والبرزالي فهو اكثرها دقة، وبه معلومات تفصيلية عن أسواق مدينة عجلون، ونستطيع ان نجمل ما جاء في هذه الوثائق بما يلي:

أولا: القيساريات
١- قيسارية الأمير سيف الدين بكتمر
٢- قيسارية الأمير تنكز بن عبد الله
٣- القيسارية القديمة.

ثانيا: الوكالات
١- دار الطعم.

ثالثا: الأسواق
١- سوق الأدميين
٢- سوق القطانين
٣- سوق الاقباعين
٤- سوق الخلعيين

(٥٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢١.

(٥٩) بيبرس الداودار، زبدة الفكرة، ج٩ لوحة ١٤٨ (مخطوط) المقريزي، السلوك، ج١، ص ٦٦٥، ٦٦٩.
صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة، ينسب اليها الخمر. (ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٤٠١).

(٦٠) الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشاء، لوحة ١٤٨ (مخطوط مكتبة جامعة القاهرة).
ونلاحظ هنا ان منطقة شرقي الأردن اشتملت اداريا في العصر المملوكي على نيابة مستقلة هي نيابة الكرك، ونيابتين صغيرتين تابعتين لنيابة دمشق هما: نيابة عجلون، ونيابة البلقاء. ولكن منذ عام ٨١٤هـ (١٤١١م) أصبح في منطقة شرقي الأردن نيابتان مستقلتان هما: نيابة الكرك، ونيابة عجلون، فمنطقة جنوب الشام (الأردن وفلسطين) كان فيها خمس نيابات هي: نيابة غزة، نيابة القدس، نيابة صفد، نيابة عجلون، نيابة الكرك.

(٦١) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٨٠.

(٦٢) النويري، نهاية الارب، ج٣١ لوحة ٩٠-٩٢ (مخطوط).

(٦٣) مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، حوادث الفترة بين سنتي ٧١٧ و٧٤١ هجرية، فرايبورغ، المانيا، ١٩٧٣م، ص٤١،٤٢.

(٦٤) النويري، نهاية الارب، ج٣١ لوحة ٩٠-٩٢ (مخطوط).

٥ـ سوق الفرايين
٦ـ سوق الفاميين
٧ـ سوق العلافين
٨ـ سوق الحصريين
٩ـ سوق اللحامين
١٠ـ سوق السقطيين
١١ـ سوق الصاغة
١٢ـ سوق البز العتيق
١٣ـ سوق ام معبد
١٤ـ سوق الأمير سيف الدين
١٥ـ سوق الأمير ركن الدين
١٦ـ حوانيت الخبازين
١٧ـ حوانيت الطباخين
١٨ـ حوانيت البضاعة
١٩ـ حوانيت القاضي فخر الدين
٢٠ـ حوانيت الدق.(٦٥)

رابعا: المرافق الأخرى
١ـ المصبغة (الدباغة)
٢ـ العرصة (وتسمى احيانا عرصة الغلال، ساحة واسعة لبيع الغلال)
٣ـ المسجد الجامع وأوقافه
٤ـ الحمام السلطاني
٥ـ الحمام الصالحي
٦ـ مسلخ المعز والضأن
٧ـ مسلخ أم معبد
٨ـ المدرسة اليقينية
٩ـ الجسور والقناطر والاقباء المبنية فوق الأودية.
١٠ـ الطواحين.

فمن خلال الأرقام السابقة نلاحظ عدد المنشآت والمرافق التجارية وغيرها التي هدمها السيل، وهي جزء من منشآت ومرافق المدينة، مما يدلل على تشعب أسواق هذه المدينة وكثرتها، وتأكيد لما جاء في وصف ابن بطوطة لها، والذي يهمنا هنا هو القيساريات ودار الطعم. فالوثائق الثلاثة أكدت وجود (دار الطعم) في مدينة عجلون، فما هي وظيفتها؟. ذكر القلقشندي عن وجود (دار الطعم) في مدينة دمشق وقال انها «بمثابة الوكالة بالديار المصرية».(٦٦) ووجدت في دمشق وظيفة (شاد دار الطعم)، وهو الموظف المسؤول عن جمع المكوس من السلع المباعة في هذه الدار.(٦٧) فدار الطعم اذن هي دار وكالة بالمفهوم الذي كان شائعا في مصر، اضف الى ذلك ان دارا للوكالة وجدت في بيت المقدس في العصر المملوكي، ونعتتها بعض الوثائق (بالوكالة المرعية).(٦٨) وقد وجد ما يسمى (بوكيل التجار) الذي كان يقوم بمهمة الخازن للسلع أو المودع لها، وهو المسؤول عن التجار الأجانب الذين لا يستطيعون الاشراف على أعمالهم شخصيا، ويتقاضى وكيل التجار عمولة نظير خدماته التي يقدمها لزبائنه، ويرتبط عادة بعلاقات مع القناصل الاوروبيين المقيمين في بعض المدن الشامية والمصرية.(٦٩) وعلى ذلك فهل كانت مدينة عجلون مكان جذب للتجار الأجانب، بحيث أقيمت لهم فيها دار الطعم هذه (دار الوكالة)؟

ان النصوص التي بين أيدينا لا تسعفنا عن وجود مثل هؤلاء التجار الأوروبيين صراحة في عجلون، ولكننا نأخذ بعين الاعتبار تلك الوكالات التي انشئت في القاهرة للتجار الشاميين والعراقيين والشرقيين من المسلمين.(٧٠) نذكر منها، وكالة قوصون التي خصصت للتجار الشاميين لخزن الزيت والسمسم والصابون، واللوز والجوز والحلويات وكل أنواع السلع الشامية الأخرى.(٧١) وفندق عمارة، وفندق دار التفاح، وفندق الملك السعيد بدار الرمان.(٧٢) وفندق مسرور.(٧٣)

وقياسا على ذلك فاننا نستطيع القول بأن (دار الطعم) في مدينة عجلون كانت مخصصة للتجار الأجانب سواء الأوروبيين - خصوصا وانه سمح لهم الوصول الى بعض المدن الداخلية كدمشق وحلب وبغداد - أو التجار العرب، او التجار المسلمين القادمين الى عجلون من خارج بلاد الشام. وتذكر الوثائق ان شادا لدار الطعم كان موجودا في مدينة عجلون كي يجبي المكوس من السلع والبضائع الواردة والمباعة في هذه الدار.(٧٤) ويعني

(٦٥) سوق الأدميين (الجلود)، سوق الاقباعين (معد لبيع الاقباع، وهي عمامة من حرير او جوخ)، سوق الخلعيين (السوق الذي يتعاطى بيع الثياب القديمة الملبوسة)، سوق الفامية (سوق الحبوب من حنطة وحمص وعدس وغير ذلك)، سوق السقطيين (السوق الذي يباع فيه احشاء الذبائح)، حوانيت الدق (والدق هو البقايا المتفحمة من بزور الزيتون والمشمش المحروقة في الأفران وتستخدم للتدفئة والطبخ).

(٦٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٨٧.
(٦٧) القلقشندي، المصدر نفسه، ص١٨٧.
(٦٨) وثيقة وقف رقم ٦ تاريخ ٧٥٢هـ من وثائق المتحف الاسلامي بالقدس.
(٦٩) Goiten, A Mediterranean Society, Economic Foundations, U.S.A. 1967, p. 187, 192.
(٧٠) Lapidus, op. cit. p. 18.
(٧١) المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٥١.
(٧٢) نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص٢٩٣.
(٧٣) وهذا الفندق منسوب الى مسرور الخادم من خدام القصر في الدولة الفاطمية، وبقي هذا الخان حتى العصر المملوكي (أبو المحاسن النجوم الزاهرة، ج٤، ص٤٣).

ذلك أن تجارة عجلون في العصر المملوكي كانت تجارة كثيفة واسعة، مما يؤكد أهمية هذه المدينة الاقتصادي والتجاري في العصر المملوكي، فقد قدر المؤرخ الجزري قيمة الخسائر التي نجمت عن سيل عجلون عام ٧٢٨هـ (١٣٢٨م) ما قيمته ٥٠٠ر٠٠٠ درهم، عدا الغلات والمواشي والبساتين والطواحين ظاهر مدينة عجلون.(٧٥) وهذا مبلغ كبير بالنسبة لمدينة داخلية كمدينة عجلون.

خلاصة:

وهكذا فاننا نستطيع التأكيد على ارتباط شرق الأردن بالتجارة الدولية، سواء أكان ذلك عن طريق التجارة البعيدة والتجار القادمين الى دار الطعم في مدينة عجلون شرقيين أو غربيين، أو عن طريق القوافل التجارية المارة من خلاله في طريقها الى الحجاز، أو القادمة من الجنوب العربي عبر الحجاز وايلة (العقبة) في طريقها الى دمشق وحلب وبيت المقدس، أو تلك المارة من خلال العقبة برا في طريقها الى الحجاز والجنوب العربي، أو القادمة من تلك المناطق في طريقها الى الحجاز والجنوب العربي، أو القادمة من تلك المناطق في طريقها الى مصر والشمال الافريقي. أو تلك القادمة من مصر الى بلاد الشام وبالعكس عبر مدينة اربد، ولنا ان نذكر احصائية على سبيل المثال لاحدى القوافل التجارية المارة عبر منطقة شرق الأردن في طريقها من مصر الى دمشق في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، فكانت كما يلي:

أولا: عدد الدواب فيها:

٩٠٠٠ جمل

٤٥٠٠ رأس من الخيل

٤٥٠٠ رأس من البغال

ثانيا: الأموال:

٦٠٠ر٠٠٠ من الذهب العين

ثالثا: البضائع والسلع ما قيمته

٦٠٠ر٠٠٠ دينار.(٧٦)

ولا شك ان لهذه القوافل العملاقة التي كانت تجوب دروب الأردن أثرها الاقتصادي الظاهر على البلاد، بالاضافة الى قوافل الحاج الشامي والمصري السنوية التي كانت فرصة للأهالي وتجار البلاد للاتجار معهم، وكانوا يرافقونهم حتى العلا فقط، فابن بطوطة يقول: (واليها تنتهي تجار نصارى الشام، لا يتعدونها ويبايعون الحجاج الزاد وسواه).(٧٧)

(٧٤) مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، الجزء الخاص بأحداث سنتي ٧١٧ ـ ٧٤١هـ، فرايبورغ، المانيا، ١٩٧٣، ص٤٢.
النويري، نهاية الارب، ج٣١ لوحة ٩٢ (مخطوط).

(٧٥) النويري، نهاية الارب، ج ٣١ لوحة ٩٢ (مخطوط).

(٧٦) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة، ١٩٠٣م، ص١٧٠، ١٧١.
سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨.

(٧٧) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص١٣١.

شبكة المواصلات وطرق التجارة في منطقة شرقي الأردن في العصر المملوكي من اعداد الباحث